أثر الإيديولوجيا على الهوية.. من التنظير إلى الممارسة

The impact of ideology on identity, between endoscopy to practice

فـتـحـي بوخاري[1*]، هـواري حـمـادي[2]

[1]جامعة حمة لخضر، الوادي (الجزائر)

[2]جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر (الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2019/10/20؛ تاريخ القبول: 2019/11/01

ملخص: إنَّ الحديث عن الأثر الإيديولوجي في مختلف المفاهيم والتصوّرات السائدة والمؤثّرة في المجتمع وعلى رأسها مفهوم الهوية والتصورات المؤسسة لها، يجعلنا ندرك أنّنا لا نستطيع أن نضع خطا فاصلا بين الإيديولوجيا والهوية ومقوماتها في غالب الأحيان.

فالعودة إلى مقومات الهوية كالدين، اللغة، والتاريخ المشترك، يجعلنا ندرك أنّها لا تستطيع أن تتحرّر ممّا هو أيديولوجي في بناءها على مستوى التنظير والممارسة في الوقت نفسه، فمختلف تلك العناصر المؤسسة لفكرة الهوية في مختلف الشعوب والأمم وعلى رأسها الأمم العربية تخضع لتأويلات تتجاوز المستوى السوسيولوجي والثقافي والسياسي... إلى المستوى الأيديولوجي في الكثير من الأحيان، وفي هذه الورقة سنحاول مساءلة المفهومين والبحث في الأثر المتبادل بينهما، وفي إمكانية وضع خطا فاصلا نميّز فيه بين الإيديولوجيا والهوية

الكلمات المفتاحية: الهوية – الإيديولوجيا – التنظير – الممارسة

Abstract: It is very hard to speak about the ideology's impact in all perceptions in all perceptions inside society . Which makes us in doubt between ideology and identity most of the time.

However, referring back to the elements of identity such as religion ,common history and language , makes us believe that identity couldn't be independently from ideology that's to say practice and endoscope are covering it.

Those elements practice and endoscope are both in the most of nations specially the Arab one. All in all , we will try to search about relationship between endoscope and identity , and how we differ between them.

KEY WORDS: IDENTITY / IDEOLOGY / ENDOSCOPE / PRACTISE

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة

تعتبر الهوية من بين المفاهيم والأفكار التي تناولها الفلاسفة والعلماء والباحثون، فكثيرا ما ندَّعي في بعض الأحيان أنَّنا نحيط بهذا المفهوم من كافَّة جوانبه، لكن سرعان ما نكتشف أنَّنا لا نعرف ولا نحيط بأيّ شيء عنه، فهو مفهوم ترحالي، إذ نجدها في عدَّة مشارب معرفية مُتعدّدة، سواء في المنطق أو الميتافيزيقا، أو الأنثروبولوجيا، أو علم النفس، أو علم الاجتماع. وفلسفيا يرجع استعمال مصطلح الهوية إلى ما قبل سقراط وخصوصا مع هرقليطس وبارمينيدس، ليتطوَّر المفهوم وينتقل من الدلالة على الوجود، إلى الدلالة على الذات ثم إلى الدلالة على مصطلح الهوية في حدّ ذاته، كمصطلح قائم بذاته، خاصة مع الفلاسفة الغربيين المعاصرين. ومن هنا جاءت ورقتنا البحثية هذه، لتطرح بعض الأسئلة المهمة، وهي: ماهي الهوية؟ وماهي الإيديولوجيا؟ وما العلاقة بينهما؟ وكيف ننتقل بها من التنظير إلى الممارسة؟

2- مفهوم الهوية:

إنَّ الباحث عن مفهوم الهوية قد يجد أنَّ لها دلالات عميقة في فلسفة المنطق والميتافيزيقا، فعلى غرار أفلاطون وشوبنهاور، نجد أنَّ ديكارت، جون لوك وغيرهم، قد أجادوا وأفاضوا في المعالجة الفلسفية لذات الإنسان وماهيته، ولذلك يعدُّ مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم تعقيداً في الضبط والتحديد، لتضمُّنه درجة عالية من التشعُّب في عديد المجالات والسياقات.

ويعتبر مصطلح الهوية من أكثر المصطلحات اختلافًا في العلوم الإنسانية، ويرجع ذلك لحداثة استخدامه في الدراسات الأكاديمية، ولأيديولوجيته القابلة للتناول من عدة زوايا، فهو يتحدَّد بناءًا على الدلالة اللغوية والفلسفية والسوسيولوجية والتاريخية.

2-1 تعريف الهوية:

- لغة: مصطلح الهوية في اللغة العربية يقابل كلمة Identity في اللغة الانجليزية، وكلمة Identite في اللغة الفرنسية، ومصطلح الهوية من أصل لاتيني ويعني: الشيء نفسه، أو الشيء هو ما هو عليه، أي أنَّ الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر، كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية مجموع المواصفات التي تجعل من شخص ما معروفاً أو متعيناً.

أمَّا مفردة الهوية في اللغة العربية فهي مصدر صناعي مُركَّب من المقطع "هو" وضمير المفرد الغائب المعرَّف بأداة التعريف "ال"، ومن المقطع في اللاَّحقة المتمثّلة في "الياء" المشدَّدة، وعلامة التأنيث "ة" أي "يـة" (البوني، 1983، صفحة 5).

ونجد لفظ الهوية ذو مصدر "الهُوَّ" وهو كما عرَّفه الجرجاني: الغيب الذي لا يصحّ شهوده للغير، فالهوية كل ما اختص بشخص وغاب عن غيره، أو هي نسبة إلى الضمير الغائب "هو"، فكأنَّ الهوية جواب عن السؤال المطروح: من هو هذا الشيء؟ وما حقيقته؟ (الجرجاني، 1983، صفحة 257).

والهوية أيضا حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية وذلك منسوب إلى "هو" (المنجد، 1986، صفحة 857).

- اصطلاحا: هي منظومة من المعطيات المادية والمعنوية والاجتماعية ضمن نسق من عمليات التكامل المعرفية، ويعطيها وحدتها ومعناها تلك الروح الداخلية التي تنطوي على الإحساس بالهوية والشعور بها من

خلال مرّكب من المشاعر المادية، ومشاعر الانتماء والتكامل والاستمرارية الزمنية والتنوّع والقيم والاستقلال والثقة – بالنفس، والإحساس بالوجود– (ميكشيللي، 1993، صفحة 129).

ومن خلال هذا الاستقراء الخفيف لأدبيات مصطلح الهوية، نجد أنَّ هذا الأخير يحمل مضامين متعدّدة يمكن التعبير عنها أو تجسيدها أو اختزالها من خلال الآتي (ميكشيللي، 1993، صفحة 14):

– المكون الاجتماعي: من حيث الطبقة والمكانة والوظيفة، أو عناصر المكوّن البيولوجي المكوّن من العرق أو اللون أو الدم أو الجنس (النوع). ويمكن التعبير عن الهوية بطريق الانتماء والتبعية والعضوية الاثنية أو القبلية أو العائلة أو الأسرة أو المولد.

– المكون الثقافي: من حيث الدين، أو اللغة، أو العادات والتقاليد والعرف، أو القيم الاجتماعية المشتركة، أو الملبس، أو وسائل الإنتاج، أو طرائق الأكل والشرب، أو نظام أسلوب الإدارة والتنظيم الهيكلي للقوة والسلطة والقانون المنظم، والأحاجي القصصية والأساطير والخرافات، والمعتقدات الحسية المعنوية والتهيؤات المخيالية، والرموز، وكما يندرج فيها وحدة المصالح والمصير والتاريخ المشترك.

– المكون السياسي: من حيث الدولة الوطنية أو القومية، ونظام الحكم، وشكل الدولة ونظام الإدارة، والسيطرة على جهاز إدارة الدولة، أو المواطنة والجنسية، أو البناء الدستوري والقانوني فيها، أو الأيديولوجيا المُوجَّهة للبناء السياسي الرئيسي والفرعي (الحكومة والتنظيمات السياسية كالأحزاب وتنظيمات المجتمع المدني).

كلّ هذه الخصائص متغيرة حسب طريقة استخدامها وتوظيفها، وأيٌّ منها يمكن من خلاله التعبير عن الهوية، إلاّ أن البعض يضيف أخرى مستقلة لمكوّن الهوية، وهي مضامين معنوية ذاتية لامادية تتمظهر في وحدة المصالح والمصير والتاريخ المشترك، ومضامين معنوية مادية تتمظهر في الإقليم.

وتشير الأدبيات والدراسات الأكاديمية المتخصصة في الهوية، إلى أنَّ هوية أيَّة أمَّة هي هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكّلها، وهذا يعني أنّ لا وجود لهوية خارج المجتمع والتاريخ، فالأمّة وحدها تملك الهوية سواء كان جماعة صغيرة أو كبيرة، بشرط تماثل أفرادها وانصهارهم في الوجود المجتمعي الجماعي، وبالتالي لا يستطيع أي فرد أن يستقل خارج الإطار العام للجماعة، أي أنَّه في حاجة إلى هوية تجمعه مع آخرين، لأنه ليس بإمكانه أن تكون له هوية لوحده. كما أنَّه ليس في إمكان أيّ قوة أن تفرض هوية ما على مجموعة ما من الناس، دون اختيار حرّ وواعي من طرفهم (ميكشيللي، 1993، صفحة 64).

2-2 الهويّة في مفهوم التراث:

إنَّ فهمنا للهُوية ينبني على تراثنا الحضاري، فالهوية في ثقافتنا العربية الإسلامية هي الامتياز عن الأغيار من النواحي كافة.

ولفظ الهوية يطلق على معانٍ ثلاثة: التشخص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي. وقد جاء في كتاب (الكلّيات) لأبي البقاء الكفوي، أنَّ ما به الشيءُ هو باعتبار تَحَقُّقه يُسمى حقيقةً وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هويةً، وإذا أَخَذَ أعمَّ من هذا الاعتبار يُسمَّى ماهية (بنكاع، 2013/2012، صفحة 42).

والهُوية عند الجرجاني في كتاب التعريفات: الحقيقة المطلقة، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق (الجرجاني، 1995، صفحة 257).

وتستعمل كلمة (هوية) في الأدبيات المعاصرة لأداء معنَى كلمة Identité, Identity التي تعبر عن خاصية المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقته لمثيله (لالاند، 1986، صفحة 607).

وفي المعاجم الحديثة، فإنَّها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي: «حقيقة الشيء، أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميّزه عن غيره، وتُسمَّى أيضاً وحدة الذات، ولذلك فإذا اعتمدنا المفهوم اللغويَّ لكلمة (هوية)، أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث، فإنَّ المعنى العام للكلمة لا يتغيَّر، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أيّ خصوصية الذّات، وما يتميَّز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار من خصائصَ ومميزات، ومن قيّم ومقوّمات.

وخلاصة القول أنَّ الهوية الثقافية والحضارية لأُمَّة من الأُمَم هي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السّمات والقسمات العامة، التي تميّز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية، طابعاً تتميّز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى (عمارة، 1997، صفحة 46).

2-3 في فهم الهوية والأزمة الهوياتية:

لا مرِاء في أنَّ مفهوم الهوية كان ولا يزال ذلك المفهوم الهُلامي كثير المعاني والتفسيرات والشروح، على اعتبار كثرة التداول وعدم الوضوح، فهو مفهوم خاضت فيه عدّة مجالات من التفكير الثقافي وأنساق معرفية مختلفة من العلوم الاجتماعية والإنسانية، كما أنَّه – أيّ مفهوم الهوية – ارتبط بمفاهيم متشابكة كالذات واللُّغة والثقافة والحضارة والأصالة والعُرف والخُصوصية.

وإذا كانت الهوية ذات عدَّة أوجه في الاستعمال، فمن الناحية اللغوية تعني ماهية الشيء أو الشخص التي تميّزه عن غيره" (ابن منظور، 1970، صفحة 376).. أيّ أنَّ الهوية مشتقة لُغَويا من الضمير المنفصل "هو" الذي يدّل على ذات الشيء أو الشخص المستقلة عن ذوات الآخرين. والمشتقة من الكلمة اللاتينية idem، بينما تجد لفظ الهوية في اللغة الفرنسية identité يتوافق مع كلمة تعني هي الأخرى التشابه أو التماثل مع احتفاظ هذه الأشياء المتشابهة بتميّزها عن بعضها البعض (la rousse, 1994 .p30)

ويتخذ هابرماس رؤية جديدة مغايرة في فهم دلالة الهوية إذا ما تمَّ اتخاذ المجتمع كإحداثية ومرجعية أين حاول هابرماس أن يرصد من خلاله مقاربته الفلسفية "أين يرى خطاب الهوية تفاعلا ذاتيا يكشف في أرقى منازله الثراء الإنساني" (عبداللاوي، 2012، صفحة 53).

كما يراها أمين معلوف على أنَّها من المفاهيم المتشكّلة من "جمهرة من العناصر التي لا تقتصر على ما هو مُدوَّن في السجّلات الرسمية فقط،_ بالنسبة للغالبية العظمى من الناس _ بل للانتماء إلى تقليد ديني أو مجموعة اثنية أو لغوية أو إلى مهنة أو مؤسسة ووسط اجتماعي ما، وكذلك إلى مقتضيات أخرى يُفترض أنَّها غير محدودة" (معلوف، 1999، صفحة 14).

وبالتالي فإنَّ الهوية ترتبط بالوجود والذَّات والتراث الاجتماعي، والهوية الاجتماعية والثقافية، والهوية الوطنية. وهي ترتبط بالأفراد كما هي ترتبط بالمجتمعات، كآلية للتأكيد على الذات والكينونة، وإعادة ترتيب علاقاتها بمحيطها من أجل إثبات وتحقيق الاستقرار.

كما وقد ترتبط الهوية بالعامل الديني والطائفي، والاثني والإيديولوجي، والسياسي، أمَّا من الزاوية الأنثروبولوجية فإنَّ الهوية تعبّر عن محصلة التفاعلات المتنوعة بين الفرد ومحيطه الاجتماعي قريبا كان أو بعيدا"

وبدوره "دينيس كوش" يرى أنَّ هوية الفرد الاجتماعية تتميَّز بمجموع انتماءاته في النسق الاجتماعي: الانتماء إلى صنف جنسي وإلى صنف عمريٍ وإلى طبقة اجتماعية وإلى أمة...، الهوية تُمَكّن الفرد من أن

يُحدّد لذاته موضعاً ضمن النسق الاجتماعي، وأن يُحدّد الأخرون موضعه اجتماعياً (كوش، 2007، صفحة 147).

3- مفهوم الإيديولوجيا:

حين نعلم أنَّ عالم الاجتماع النرويجي أ. نيس وضع قائمة بتعابير الأيديولوجيا تضمَّنَت أكثر من ثلاثين تعريفا في بُحوث نُشِرَت أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، يتبدَّى بوضوح مقدار التشتّت الذي يمكن أن يخّلفه تتبّع كل المساهمات الرامية لتعريف الأيديولوجيا وتحديد المقصود بهذا المفهوم، لاسيما اليوم بعد مرور ما يزيد على نصف قرن – من بحث نيس– كان حافلا في العمل على ثنائية العلم والأيديولوجيا، ومن بعدها المعرفة والأيديولوجيا.. الخ (أيوب، 1983، صفحة 69).

ويمكن القول أنَّ الإيديولوجيا تشير إلى أنَّها "فن البحث في التصورات والأفكار" مُكتفياً بالمفهوم الأكاديمي الأصلي كما وصفه "ديستو كونت دي تراسي"

كما وُصِفَت الأيديولوجيا بأنَّها نسق من الآراء والأفكار والاعتقادات السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية، تختص بمجتمع معين أو طبقة اجتماعية معينة. وكان أول من استخدم هذه الكلمة المفكر والفيلسوف الفرنسي "ديستو، كونت دو تراسي" عام 1801 في كتابه "مشروع المبادئ الأيديولوجية"، وفيه يُحدد الإيديولوجيا "كعلم يهدف إلى دراسة الأفكار وخصائصها وقوانينها وعلاقاتها بالمعاني والإشارات التي تمثلها أو ترمز إليها"، وأصبحت الإيديولوجيا تعتبر عقيدة تستند إليها أو تستوحي منها الحكومات أو الأحزاب السياسية.

وفي الماركسية تُعتبر الإيديولوجيا انعكاساً صادقاً وتعبيراً عن الواقع، وهي جزء من البناء الفوقي الاقتصادي. ويتطابق دائما الصراع الإيديولوجي مع الصراع الطبقي." وهكذا تركز الموسوعة على المفهوم الأكاديمي الأصلي للإيديولوجيا، بالإضافة إلى المفهوم الماركسي لها، مع التأكيد أيضا على المنظور المثالي في جانبه الاعتقادي. (الميسرة، 2001، صفحة 335).

وتعتبر الأيديولوجيا رؤية جدلية لمجموعة من الأفكار أو المفاهيم فيما يتعلق بالإنسانية أو الثقافية بصفة خاصة، وهي نظريات موجودة ومندمجة تهدف إلى وضع برنامج سياسي واجتماعي، أو هي مخطط أو برنامج فلسفة بناء عليه أو جزئية مبنية على فروض أو حقائق ذات طابع فكري.

فالأيديولوجيا هي أفكار لموقف معين يقوم على فكر معين يهدف إلى تقديم رؤية محددة لجماعة أو مجتمع.

وعليه يمكن القول بأنَّ الهوية قد تتحدَّد في بعض أجزائها بأيديولوجيا المجتمع أو الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، فمجموع المعتقدات تشكل الإطار العام لهوية الفرد في شقّها السياسي خاصة. (رابحي، 2013، صفحة 50، 51).

3-1 مفهوم الإيديولوجيا في التراث العربي:

في مؤلفه "مفهوم الإيديولوجيا"، يقدم لنا (العروي، 2003، صفحة 9) تصوّراً نظريا لهذا المصطلح، مُؤكدا أنَّ كلمة الإيديولوجيا دخيلة على كلّ اللُّغات الحية، وهي تعني في أصلها الفرنسي (علم الأفكار) – مثلما أسلفنا الذكر– غير أنَّها لم تحتفظ بهذا المعنى، فلا عجب إذن أن يخفق الكُتَّاب العرب في إيجاد ترجمة لائقة لهذا المصطلح الذي يكتنفه الكثير من الغُموض.

"إنَّ العبارات التي تقابلها: منظومة فكرية، عقيدة، ذهنية، الخ – تشير فقط إلى معنى واحد من بين معانيها". ويضيف عبد الله العروي أنّنا عندما نقول إنَّ هذا الحزب يحمل إيديولوجية ونعني بها الخلفية الفكرية التي تؤطر مجموع القيم والمبادئ والأخلاق والأهداف التي يطمح إلى تحقيقها، فهذا الحكم يجد مقبولية عند الناس ويكتسي صبغة إيجابية، "لأنَّ الحزب الذي لا يملك إيديولوجية هو في نظرنا حزب انتهازي، ظرفي، لا يهمه سوى استغلال النفوذ والسلطة"

كما أنَّنا عندما نلج إيديولوجية عصر من العصور كعصر النهضة، فالمقصود منها النظرة التي كان رجل عصر النهضة يتمثّلها ويبديها عن المجتمع والفرد، والتي يندرج تحت قواعدها العامة كل حكم صدر في ذلك العصر، حيث لا يمكن مقارنة نتائج علماء النهضة بالعلم المعاصر" بل نربطها بفلسفة وأدب وفن وسياسة العهد المذكور.

فأدلجة عصر من العصور هي إذن الأفق الذهني الذي كان يحد فكر إنسان ذلك العصر"، كما يُشدّد عبد الله العروي على أنَّ مفهوم الإيديولوجيا مرتبط بالمجتمع والتاريخ بقوله:" إنَّ مفهوم الأدلجة لا ينتعش ويتبلور إلاَّ في نطاق نظرية اجتماعية ونظرية تاريخية متكاملتين"، وما يجب التنبيه إليه أنَّنا كُلَّما قلنا إيديولوجيا وجب التفكير ضمنيا بواقع ما وحقيقة ما، ولا نحكم عن إيديولوجيا إلاَّ بالاعتماد على ذلك الواقع وتلك الحقيقة، وبذلك يتسنَّى لنا استعمال المفهوم لا الكلمة.

4- علاقة الأيديولوجيا بالهوية:

إنَّ علاقة الأيديولوجيا بالهوية نفهمها انطلاقا من نص (حرب، 1995، صفحة 105) في كتاب "الممنوع والممتنع، حيث يقول: "صرت أعتقد أنَّ السؤال عن الهوية سؤال مُفخَّخ يرمي إلى استدراجي لكي أقع في الشرك، إذ يريد لي أن أكون رهناً لهويتي، سَجِيناً لمعتقدات وتقاليد وثوابت سلوكية أو فكرية لست أنا من أختارها...الملاحظ أنَّ أكثر الذين يهتمون بالهوية والانتماء هم أصحاب العقائد، أكانوا سَاسة أم كَهنة أم فُقهاء متكلّمين، وبالإجمال النموذج العقائدي يتناول الهوية بصورة أحادية دوغمائية أي على نحو لا يمكن أن يؤول إلاَّ إلى التحزُّب والتعصُّب والانغلاق على الذات في مواجهة الغير".

إنَّ من خلال هذا النص فإنَّ "علي حرب" ينعت ويصف الهوية بفخ، ويرى أنَّها سؤال مفخخ يؤدي إلى الابتعاد عن الحقيقة والحرية، ويجعل الإنسان سجيناً لمعتقده ولغته وأفكار مفروضة عليه من خارج، كما يؤكد أنَّ الذي يطرح الهوية هم أصحاب الايديولوجيات والعقائد، وأهمهم السَاسَة والكَهَنَة من أجل الهيمنة والسيطرة مثل: الخطاب الأصولي ينادي بالهوية الإسلامية للعرب مثلا، مَعبّرا عن خطاب ايديولوجي ينتهي إلى التطرُّف والانغلاق، بل أدَّى إلى الحُروب التي دمَّرَت الكثير من المجتمعات والدول باسم الهوية الإسلامية.

وإضافة إلى ما سبق، فقد أكد "هنتغنتون" صاحب فكرة صِدام الحضارات أنَّه يحدث باسم حرب الهويات، لأنَّها تؤسس لصراعات لا حد ولا حصر كما ظهرت في أفغانستان والعراق.. وتَجَسَّدت في هجومات 11 سبتمبر.. وهي ما يبين أنَّ المصطلح الأكثر قابلية للأدلجة، ولاسيما حسب مكوناتها التي تقبل القراءة أو التأويل من أجل التوظيف الإيديولوجي للغة أو الدين أو التاريخ...

وحسب "هنتغتون" فإنَّ ما يؤكد أنَّ الخطر المتمثل في الصراع بين الثقافتين الشرقية القائمة على التأسيس لهوية إسلامية في العالم، والثقافة الغربية الرافضة لها، إنَّما ناتج عن اختلاف الهوية، أو تأويل لها

وفق منطق الهيمنة والسيطرة في إطار ما سمَّاه بالخطر الأخضر الذي يهدد العالم، بدل الخطر الأخضر الذي ساد العالم أثناء الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي.

إنَّ الهوية في نظر الكثير من المفكرين هي سؤال الدول الضعيفة التي تستخدمها كوسيلة للهيمنة باسم التاريخ والدين واللغة... وتكريس الإستبداد والديكتاتورية.

الهوية هي أهمُّ ما يقبل التأويل والقراءة النفعية المزيفة، حيث أنَّ الدين مثلاً كأهم مكون لها يُقرأ بتأويلات مختلفة كثيرا ما كانت غايتها الهيمنة والسيطرة، سواء في القراءة العلمانية أو الأصولية لها الهوية في عصر العولمة خلقت تعصباً وانغلاقا وعدم الانفتاح، لأنَّها مُجرَّد ايديولوجية لهيمنة ثقافة القوي المتطور تكنولوجيا على الضعيف والمتخلف عن الركب الحضاري.

5- الهوية الإيديولوجية:

هي منظومة الأفكار المرتبطة بتعاليم واتجاهات واعتقادات ورموز تشكل نظرة كلية لشخص أو جماعة، وهي مجموعة خيارات الفرد في عدد من المجالات الحيوية: المعتقدات الدينية والسياسية والمهنية وأسلوب الحياة" (عزالدين، 2007، صفحة 49) (الغامدي، 2001، صفحة 221).

5-1 مستويات الهوية الإيديولوجية:

حدَّد "جيمس مارشيا" أربع حالات للهوية: الهوية المنجزة، الهوية المعلقة /المؤجلة، الهوية المغلقة، الهوية المشتتة"، وهذه الحالات هي وضعيات للهوية، وأنَّ التشكل في أي من هذه الحالات هو مركب هام في تحديد الشخصية، وتّبين محاولة المراهق السعي نحو تشكيل أو تفادي تشكيل الهوية (Coleman &Hendry 1990,pp 63-64)

5-2 المجالات الأساسية للهوية الإيديولوجية:

"تتضمَّن تركيب هوية الأنا والتي ترجع إلى تحقيق الالتزام في نواحي العمل والقيم الإيديولوجية المرتبطة بالسياسة والدين وفلسفة الحياة" (السيد، 1998، صفحة 24).

6- المفهوم الفلسفي للإيديولوجيا:

إنَّ الأيديولوجيا إذ تضرب بجذورها في الواقع الاجتماعي المعيشي وتطلعات الفئات والأفراد فيه، فإنَّ علماء الاجتماع دعوا إلى حتمية الدراسة السوسيولوجية في تحليل الفكر البشري؛ حيث اتَّجَه علم اجتماع المعرفة في تحديداته لضبط مفهوم الأيديولوجيا إلى أنَّها لا تدل فقط على المعتقدات التي توجد لدى الناس، أو نسق حضورها الاجتماعي، فهي القيم أو محصلة الأهداف والمعايير، وإنَّما تتضمَّن كل هذه الجوانب مجتمعة، بالإضافة إلى نظرة الإنسان للأشياء المحيطة به والتصور الذي يشكله عن العالم، وهي في الوقت نفسه تشير إلى مجموعة الخَبرات والأفكار والآراء التي يستند عليها في تقويمه للظواهر. (المسيري، 1983، صفحة 135).

إنَّها إذن رؤية شاملة تحمل تصور الإنسان للعالم عبر محصلة خبرات «المحيطة به تاريخيا، تجعل رؤيته ذات قاعدة فكرية صلبة تشكل – بصيغة ما- قاعدة صلبة من خبرات وآراء وأفكار في صيرورة بناء المجتمع.

لقد دعا دوركايم الذي يعتبر أحد أهم مؤسسي علم الاجتماع – إلى ضرورة توسيع البحث الأيديولوجي وربطه بالدراسات العلمية القائمة في مضمار تاريخ الأفكار، وتجاوز النظرة الضيقة للأيديولوجيا التي تستند

إلى عامل سيكولوجي محض، تعتمد في تأويل الأفكار على معيار المنفعة؛ أين تبدو آراء وأفكار الآخر يشوبها دائما غموض يخفي المصالح الشخصية، ويدفع إلى الريبة والشك حينما ننظر إلى هذه الأفكار أو تلك التصرفات على أنَّها مُجرَّد تغطية شعورية بدرجات متفاوتة لطبيعة الموقف الحقيقية" (ابراهيم، 1971، صفحة 183).

فعلى هذا الأساس السيكولوجي اقترنت الأيديولوجيا في مراحل تاريخية متفاوتة بالنفعية، وبالشك والريبة في قراءة الأفكار وتحليلها، وهو الأمر الذي جعل أحد أبرز علماء الاجتماع "دوركايم" يقترح المناهج العلمية لدراسة الأفكار والإفادة من إجراءاتها العملية في البحث الأيديولوجي.

وعلى خلاف الرؤية الماركسية – التي تعتبر طبقة البروليتاريا طبقة كونية تمثل انحلال كل الطبقات فيها، وتمتلك وحدها القدرة والفعالية في فضح الأيديولوجيات– قرر لكل وضع علماء الاجتماع أحقية كل طبقة اجتماعية في رؤيتها للحقائق الإنسانية، وأن تاريخي حقيقته الخاصة، وأنه ليس ثمة طبقة اجتماعية واحدة تحتكر لنفسها المعنى الكلي للحقيقة الإنسانية" (ابراهيم، 1971، صفحة 183).

ومن ثم فتحت هذه الحقيقة الاجتماعية مجالاً واسعاً لكل الطبقات الاجتماعية، لاستعمال أيديولوجيتها – في صراعها التاريخي – النابعة من رؤيتها الخاصة للعالم، ولتبرير مصالحها وفرض وجودها.

7– خاتمة:

من خلال ما استعرضناه عن الهويّة وماهيتها وعلاقتها بالإيديولوجيا، فإنَّنا نقول بأنَّه لا يمكن الفصل بين الهوية والإيديولوجيا، فالهوية ليست مصطلحا ثابتا، بل مرهون بالتطور والبناء الحضاري، بحيث يضعف بضعف المجتمع ويتطور بتطوره، وبالتالي فإنَّ الهوية لا تختلف عن الهيمنة، ولكن هي مفهوم متغير ومتطور في الوقت نفسه وجب أن ندافع عنه بلغة الفعل بدل لغة الانفعال فقط، أي تطوير الاقتصاد والاهتمام بالعلم ... ولا سيما في عصر العولمة.

– المصادر والمراجع:

أولا: باللغة العربية:

أ– المؤلفات:

– ابراهيم، زكريا. (1971). مشكلة الفلسفة. مصر. مكتبة مصر.

– ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. (1970). لسان العرب. بيروت. دار صادر.

– الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف. (1983). كتاب التعريفات. دار الكتب العلمية.

– السيد، عبد الرحمن محمد. (1998). مقياس موضوعي لرتب الهوية الإيديولوجية والاجتماعية في مرحلتي المراهقة المتأخرة والرشد المبكر. القاهرة. مصر. دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

– العروي، عبد الله. (2003). مفهوم الإيديولوجيا. بيروت. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي.

– المسيري، عبد الوهاب محمد. (1983). الأيديولوجية الصهيونية. دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

– المنجد، في اللغة والأعلام. (1986). بيروت. دار المشرق.

– الموسوعة، العربية الميسرة. (2001). دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع.

- أيوب، سمير. (1983). تأثيرات الإيديولوجيا في علم الاجتماع. بيروت. معهد الإنماء العربي.
- حرب، علي. (1995). الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكرة). المركز الثقافي العربي.
- عبد اللاوي، الناصر. (2012). الهوية والتواصلية في تفكير هابرماس. الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة. لبنان. دار الفارابي للنشر والتوزيع.
- عمارة، محمد. (1997). الهوية الحضارية. مجلة الهلال، القاهرة، دار الهلال.
- ميكشيللي، إليكس. (1993). الهوية. ترجمة: علي وطفه. دمشق. دار الوسيم للخدمات الطباعية.
- معلوف، أمين. (1999). الهويات القاتلة. ترجمة نبيل محسن. دمشق. دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع.
- كوش، دنيس. (2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني. لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية.
- لالاند، أندريه. (1986). موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب: خليل أحمد خليل، وأحمد عويدات. بيروت. باريس. منشورات عويدات.

ب- المجلاّت:

- البوني، عفيف. (1983). في الهوية القومية العربية. مجلة المستقبل العربي، العدد 57.
- الغامدي، حسين عبد الفتاح. (2001). علاقة تشكل هوية الأنا بنمو التفكير الأخلاقي لدى عينة من الذكور في مرحلة المراهقة والشباب بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية. قسم علم النفس. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. المجلة المصرية للدراسات النفسية. العدد 29.

ج- الرسائل:

- بن نكاع، م. أ. (2013/2012). ملامح الهوية في السينما الجزائرية. بحث مقدم لنيل الدكتوراه: قسم الدراما الفنية، كلية الأداب واللغات والفنون، جامعة وهران.
- رابحي، اسماعيل. (2013). الإصلاح التربوي وإشكالية الهوية في المنظومة التربوية الجزائرية. دكتوراه العلوم في علم النفس. غير منشورة. جامعة باتنة.
- عز الدين، علي لينا. (2007). رتب الهوية الاجتماعية والإيديولوجية وعلاقتها بالاغتراب النفسي. دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة دمشق. رسالة ماجستير غير منشورة. إشراف الدكتور علي نحيلي. كلية التربية - جامعة دمشق. سوريا

ثانيا: المراجع باللغة الاجنبية:

- Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, 1994. paris, la rousse.
- Coleman, JohnC. Leo Hendry. 1990. "The Nature of Adolescence" Second edition, London EC4P 4EE, published in the USA & Canada by Routledge.